الفصل الثالث

جوانبُ البحتري

١ ـ آثاره

ترك لنا البحتري :

١ ـ ديواناً ضخماً ظل غير مرتب إلى أيام أبي بكر الصولي[١] ، فجمعه ورتبه على الحروف ، وجمعه أيضاً علي بن حمزة الأصبهاني[٢] ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع [٣] . وما بين أيدينا من نسخ ديوانه يحتاج إلى تحقيق دقيق وشرح واف .

٢ ـ كتاب الحماسة ، وقد اختاره البحتري من شعر نحو ستمائة شاعر ، أكثرهم من الجاهليين والمخضرمين ، وقسمه أربعة وسبعين ومائة باب ، ترجع في الحقيقة إلى ثلاثة أبواب : واحد للحماسة ، وثان للأدب ، وثالث للرثاء ؛ فأنت تستطيع أن تردّ الأبواب السبعة والعشرين الأولى في حماسة البحتري إلى معنى واحد ، هو الحماسة ، والأبواب الباقية ما عدا الأخير منها تدخل كلها في الأدب والاجتماع ، والباب الباقي لمراثي النساء . بيد أن البحتري فصّل هذه الأبواب الثلاثة تفصيلاً بلغت به العدد الذي ذكرناه ؛ إذ أنه ترجم للمعاني التي تندرج تحت الباب الواحد بأبواب خاصة .

تمتاز حماسة البحتري بغزارة المعاني وكثرة الشعر الذي يتعلق بالأدب والأخلاق ، فهو أكثر ما فيها ، كما أنّ الحماسة وأمور الحرب

---

(١) أديب جماع للكتب ، توفي سنة ٣٣٠ هـ .

(٢) أخباري ، جمع ديوان أبي تمام على الأنواع أيضاً .

(٣) معجم الأدباء ١٩ : ٢٥١ .

فى حماسة أبى تمام قد أخذت أكبر عنايته بالنسبة إلى الأبواب الأخرى التى ترجم لها فى كتابه : من أدب ، ونسيب ، ورثاء ، وأضياف ، ومديح ، وملح ، ومذمة نساء . وإذن فنحن نستطيع القول بأن حماسة أبى تمام أكثر أبواباً من حماسة البحترىّ ، وإن كان الأدب والأخلاق عند البحترىّ أكثر وأغزر ، ويصح لنا أن نرجح أن البحترى سمّى كتابه بالحماسة اقتداء بأبى تمام ، وإلا فربما كان من المناسب أن يدعو كتابه : كتاب الأدب ، لأنه أكثر ما فى اختياره ، كما أنّ أبا تمام دعا كتابه بالحماسة ، لأنها أكثر ما فى الكتاب بالنسبة إلى الأبواب الباقية . وربما كان الدافع لهما إلى تسمية كتابيهما بالحماسة أنهما بدآ مختاراتهما بها .

يذكر أبو تمام كل ما يتعلق بالحماسة أو الأدب مثلا تحت باب واحد ، أما البحترىّ فيلتزم جانب التفصيل والتقسيم . تقرأ باب الأدب مثلا فى حماسة أبى تمام ، فترى فيه من غير ترتيب ولا تفصيل شعراً فى الحلم ، وفى التسامح مع الصديق ، وفى قطع من يرتاب فى ودّه ، إلى ما سوى ذلك ، من غير أن يترجم لكل معنى ، ومن غير أن يضع كل ما يتعلق بالمعنى الواحد بعضه بجوار بعض ، وإذا قرأت البحترىّ رأيته يفصّل : فباب لمؤاخاة الكرام ، وآخر لترك مؤاخاة اللئام ، وثالث لابتلاء الرجال قبل مؤاخاتهم ، ورابع فيمن تتهم مودّته ، ولا يوثق بإخائه . وهكذا يمضى مبوّباً ، مختاراً من الشعر ما يدلّ على المعنى الذى يريده وحده .

لكل من طريقة أبى تمام والبحترىّ مزيّة : فطريقة أبى تمام لها فضلها من ناحية أنه يعطيك غالباً القصيدة كاملة ، أو ما يختاره منها ، من غير أن يضطره التفصيل — كما اضطر البحترىّ — إلى تجزىء القطعة ، وتفريق شملها ، والاقتصار فى كثير من الأحيان على بيت واحد فحسب ، أو حذف الكثير من القصيدة ، لأنها لم تدخل فيما عقده من أبواب . وطريقة البحترىّ لها ميزاتها من ناحية التقسيم ، فهو يعطيك صوراً مختلفة فى الأساليب ، وطريقة الأداء للمعنى الواحد . ولنضرب لذلك مثلا يوضح ما ذكرناه : روى أبو تمام

فى حماسته فى باب الأدب قصيدة معن بن أوس التى مطلعها :

لعمرك ما أدرى ، وإنى لأوجل على أينا تعدو المنية أول[١]

ورواها كلها ، بينما فرّق البحترىّ أوصالها ، فذكر بيتين منها فى باب قطع من اعترض فى ودّه ، وهما :

وكنتُ إذا ما صاحبٌ رام هجرة وبدّل سوءاً بالذى كنت أفعل
قلبت له ظهر المجنّ ، فلم أدم على ذاك إلاّ ريثما أتحوّل

وروى فى باب صحّة المودّة ، وحفظ الإخاء خمسة أبيات وهى :

وإنى أخوك الدّائم العهد لم أحـــل إذا حال دهر ، أو نبا بك منزل[٢]
أحارب من حاربت من ذى عداوة وأحبس مالى إن غرمتَ ، فأعقل[٣]
وإن سؤتنى يوماً صفحت إلى غد ليعقب يوماً منك آخر مُقبل
كأنك تشفى منك داء مخامراً أذاتى ، وما فى نيّتى لك معضل[٤]
ستقطع فى الدّنيا إذا ما قطعتنى يمينك ، فانظر أىّ كفّ تبدّل

وباقى القصيدة لم يذكره البحترىّ ، والأمثلة على ما ذكرناه كثيرة .

هذا ، ولعلّ القصد الخلقىّ كان هدفاً من أهداف البحترىّ ، وربما كان هو الباعث الذى حداه إلى ترك ما أورده أبو تمام فى حماسته من الغزل والهجاء ومذمّة النساء .

يشترك أبو تمام والبحترىّ فى كثير من الشعراء الذين رويا عنهم ، وقد يختار أبو تمام قطعة لشاعر ، ويختار البحترىّ لهذا الشاعر بعينه قطعة غيرها . وقد تروق البحترىّ قطعة سبق أن اختارها أبو تمام ، فيحرص البحترىّ على ذكرها فى اختياراته . كما تشترك الحماستان فى أنّ الكلمات الغريبة قليلة فيهما ؛ لأنّ السهولة كانت من مميزات العصر العباسىّ . وتشتركان أيضاً فى كثرة عدد

---

(١) وجل يوجل : خاف .
(٢) حال : تحول من حال إلى حال . ونبا به : لم يوافقه .
(٣) عقل القتيل : أدى ديته .
(٤) خامره : خالطه . والأذاة : الأذى . وأعضل الأمر : استغلق .

الشعراء الذين اختار لهم صاحبا الحماستين . فالبحترىّ قد اختار حماسته من شعر نحو ستّمائة شاعر ، وأبو تمام قد اختار من شعر نحو خمسمائة .

ووضع البحترىّ حماسته تنفيذاً لرغبة الفتح بن خاقان ، وذاك يدلّ على أن وضعه للكتاب كان قبل مقتل الفتح ، أى حين كانت سنه حول الأربعين ، أو قبلها .

أما السرّ فى شهرة حماسة أبو تمام حتى جرفت حماسة البحترىّ فلعله يعود إلى أن كثرة التفصيل والتقسيم التى اتبعها البحترى أضاعت بهجة عرض القصيدة كاملة ، هذا إلى كثرة الفنون التى عرضها حماسة أبى تمام كما ذكرنا .

٣ — كتاب معانى الشعر ، ولم يصل إلينا ، ولكنا نستطيع أن نفهم ، بالقياس على الكتب التى وضعت فى معانى الشعر ، وبقيت حتى وصلت إلينا ، ككتاب معانى الشعر للأشناندانى — أنّ كتاب البحترىّ كان يضمّ بين دفتيه أبياتاً من الشعر العربى بها كثير من الألفاظ اللغوية الغريبة ، وكثير من الألفاظ التى تحتمل معانى عدّة ، ثم يتكفل البحترىّ بشرح ذلك كله . والكتابان يدلاّن على مدى ما وصلت إليه الثقافة الأدبية للبحترىّ من اتساع وعمق .

٢ — مذهبه فى الشعر

قال البحترىّ فى إحدى قصائده :

ومعان لو فصّلتها القوافى ... هجنت شعر جرول ولبيد[1]
حزن مستعمل الكلام اختياراً ... وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب ، فأدرك ... ن به غاية المراد البعيد

وقال فى أخرى :

وإذا دجت أفلامه ، ثمّ انتحت ... برقت مصابيح الدّجى فى كتبه[2]
باللفظ يقرب فهمه فى بعده ... منا ، ويبعد نيله فى قربه

---

(١) جرول : هو الحطيئة ، شاعر مخضرم توفى نحو سنة ٣٠ هـ . ولبيد : شاعر فارس مخضرم . توفى سنة ٤١ هـ .

(٢) دجت أفلامه ، أى بالمداد ، ودجت : أظلمت . وانتحت : جدت .

وقال فى ثالثة :

كلفتمونا حدود منطقكم ... فى الشعر يلغى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ ... ـطق : ما نوعه ، وما سببه[١]
والشعر لمحٌ ، تكفى إشـارته ... وليس بالهذر ، طولت خطبه[٢]
لو أن ذاك الشريف وازن بيـ ... ـن اللفظ واختار لم يقل : شجبه[٣]
واللفظ حلى المعنى ، وليس يريـ ... ـك الصُّفر حسناً يريكه ذهبه[٤]

رأى بعض الباحثين[٥] أن البيت الأول فى القطعة الأولى يدلّ على أن البحترى يشهد بفضل الشعر على النثر ، ويرى له عليه فضل السبق ، وأنه يزين المعانى ويحليها ، ونرى أن فى ذلك تحميلاً للبيت فوق ما يطيق ، وأن الشاعر لم يقصد إلى ذلك عندما أنشأ قصيدته . فالشاعر يرمى فى قصيدته إلى أن يفضل بلاغة صاحبه على بلاغة الكتاب والشعراء ، أما أنه رفعه على الكتاب فقد قال له :

لتفننت فى الكتابة حتى ... نسى الناس فنّ عبد الحميد

يريد بذلك أنه تفنن فى كتابته ، وارتفع بمستواها ارتفاعاً فاق به عبد الحميد الكاتب ، وبقى أن يرفعه على بلاغة الشعراء ، فقال : إن المعانى التى ضمنها كتابته لو أنها وضعت فى ميزان شعرى لسادت شعر الحطيئة وجرير . ومن غير المعقول أن يريد البحترىّ التلميح فى قصيدته إلى تفضيل الشعر على النثر ، وهو يطرى بلاغة وزير كاتب .

تدلنا هذه الأبيات على أن البحترىّ يرى الشعر الرّائع هو هذا الذى يستعمل الأسلوب الواضح الذى لا تعقيد فيه ، والذى يتخذ أداته الألفاظ القريبة المألوفة

---

(١) ذو القروح : امرؤ القيس .
(٢) الهذر : الخلط ، والتكلم بما لا ينبغى .
(٣) يريد بالشريف : عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الذى جرت بينه وبينه البحترىّ مناقشة بالشعر تجدها فى الديوان . والشجب : الهلاك .
(٤) الصفر : النحاس الأصفر .
(٥) هو ابن رشيق القيروانى فى العمدة ١ : ١٦٤ .

لدى البلغاء ، يعبر بها عن أغراضه ، على ألا تكون هذه الألفاظ مبتذلة . بل تكون مع قربها إلينا بعيدة منا .

كما أنه لا يرى استعمال اللفظ الثقيل على اللسان ما دام اللفظ الخفيف يغنى عنه ، لأن اللفظ جمال لمعناه ، والجميل بطبيعته ليس كالمموّه الكاذب الجمال ، وواجب الشاعر أن يوازن بين الكلمات ليختار أجملها وأسهلها على اللسان .

هذا التعقيد الذى كرهه البحترى جعله ينأى عن أن يملأ شعره بهذه المحسنات البديعية التى أغرم بها أستاذه أبو تمام ، لما يجرّه الإغراق فى استعمالها من تعقيد يجعل الشعر مظلماً ، لا يشعّ منه نور المعنى ، ولا يقرب فيه ، على يسر ، إدراكُ الهدف .

أما معانى الشعر ، ومقاييسه ، فلا يشترط فيها أن تجرى على حدود المنطق ، وأن نأخذ فيها بالقول المحقق الذى يقوم عليه من العقل برهان قاطع ، بل إنّ الشعر يكفى فيه التخيل ، وأن تذهب النفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل ، فمثلا يجد الشعر من الجميل قول البحترى فى وصف الربيع :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما[1]

بينما لا يثبت هذا المعنى أمام مقاييس المنطق العقلية .

كما أن البحترىّ لا يجد من الضرورى فى الشعر أن يتضمن مقاييس وقضايا كمقاييس المنطق ، وقضاياه . ولا يريد الشاعر أن الكذب وتغيير الحقائق مما يصلح فى الشعر ، ويكون مقبولا فيه ، فإن مثل هذا الشعر لا يكذبه الناس بالحجج المنطقية ، ولكن يكذبونه بالرجوع إلى حقائق الحياة ، وهكذا يكون الكذب المقبول فى الشعر هو هذا الخيال الذى يعين على تصوّر الحقيقة . وعلى هذا جرى البحترىّ فى شعره : فهو ذو أسلوب واضح لا ظلمة فيه ولا تعقيد ، قد اختار الألفاظ المستعملة ، وتجنب الحوشية الثقيلة ، واستعمل ألوان البديع ، لكنه فى استعمال هذه الحلية ، حتى لا تجرّ الغموض على معانيه ، كما اتخذ

---

(١) يختال : يتبختر .

الخيال وسيلة يكمل بها معانيه ، فتتضح فى ذهن السامع كاملة .

كذلك أحب البحترىّ الإيجاز فى شعره ، فقصائده موجزة فى أغلبها غير مطيلة ، لأنه يرى الإطالة سمة للخطابة لا للشعر .

هذا رأيه فى الشعر ، قد سار عليه فيما قرضه . وإذا كان استحسان المرء لشىء يدل على وجهة نظره ومذهبه ، فلنا أن نستنبط من إعجاب البحترىّ بهذا الشعر فيما روى ابن خلكان[١] ، وهو :

حمام الأراك ألا فاخبرينـــا ... لمن تندبين ؟ ومن تُعولينا؟[٢]

فقد شقيت بالنوح منا القلوب ... وأدميت بالندْب منا العيونا[٣]

تعالىْ نُقم مأتماً للهموم ... ونعول إخواننا الظاعنينا[٤]

ونســـعدكن ، وتســـعدننـــا ... فإنّ الحزين يواسى الحزينا[٥]

لنا أن نستنبط أن البحترى يرى الشعر الرّائع ذلك الذى يستطيع تصوير العاطفة أقوى تصوير وأصدقه ، لأنّ هذه الأبيات تعبر عما كان يحسّ به البحترى من آلام الغربة عن وطنه ، عندما كان يبتعد عنه ، وما أكثر ما ابتعد عنه!

٣ ــ فنون شعره

كانت ظروف الحياة فى أيام البحترىّ تدفع الشعراء إلى انتهاج سبيل معينة فى شعرهم ، تلك هى أن يقصدوا به كبار رجال الدولة من خلفاء ، ووزراء ، وقوّاد ، وكتاب ، وغيرهم ؛ يمدحونهم بالشعر ، لينالوا جوائزهم ، ويعيشوا على هذه الجوائز ، وقد اتخذ هؤلاء الكبار من الشعراء وسائل للدّعاية لهم ، ونشر سمعة طيبة فى شعوبهم ، فكان كثير مما أنشئ من الشعر يومئذ فى المدح والثناء .

ولكنّ الشعراء نفّسوا عن عواطفهم ، وهم ينشئون قصيدة المدح ، فبثوا

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ١٧٧ .

(٢) الأراك : شجر . وأعول : رفع صوته بالبكاء والصياح .

(٣) شاقه : هاجه . وأدمى : أخرج الدم .

(٤) الظاعن : الراحل . (٥) أسعده : عاونه .

فيها هنا وهناك كثيراً من غير المدح : جعلوا مفتتحها الغزل . فحدّثونا عن هذه العاطفة الخالدة ، وأدخلوا فى ثناياها الحكمة ، تحمل تجارب الناس وتجاربهم الخاصة ، ومزجوها بوصف الطبيعة ، وما شادته يد الإنسان ، وسجلوا فيها حوادث التاريخ ، وآراء الكبار فى هذه الحوادث ، فأصبحت قصيدة المدح تضمّ أغراضاً سواه .

ولقد جرى البحترىّ على النسق الذى جرى عليه أسلافه من قبل : فمدح ، وهجا ، وعاتب ، واستعطف ، وتغزل ، وافتخر ، ووصف ، ورثى ، واعتذر ، ونثر الحكمة . وهذه كلمة عن كل غرض من فنونه الشعرية :

١ — المدح :

شغل المدح أكثر شعر البحترىّ ، وقد يبدو ذلك مقللا من قيمة هذا الشعر ، ولكنّ هذا التراث من شعر المدح نفيد منه فائدة كبرى إذا نظرنا إليه لا على أنه مرتبط بشخص خاص ، ولكن على أنه تصوير للفضائل الإنسانية التى ينبغى أن يتصف بها الخليفة والوزير مثلاً ، ورسم للمثل الأعلى الذى ينبغى أن يكون عليه الحاكم أو الكاتب . أوَليس هذا الشعر الذى يلقى على مسامع الممدوحين جديراً أن ينبههم إلى رسالتهم فى الحياة ، وما ينبغى أن يكونوا عليه ، وخليقاً أن يقودهم ، ويقود الأجيال من بعدهم إلى خير سبل الحكم وسياسة الرعية .

وعلى هذا الأساس نعرض شعر البحترىّ فى المدح ، وقد خلعه على طوائف مختلفة ، فيها الخليفة ، وفيها مستشاره ، وفيها الوزير ، وفيها الكاتب ، وفيها النديم ، وفيها القائد ، وفيها غير أولئك من كبار الرجال فى أيامه .

والبحترى يعدّ من صفات الحاكم المثالية دماثة الخلق ، وطلاقة الوجه ، والكرم فى العطاء ، ويذكر من بين ما يحببه إلى رعيته دفاعه عن أطراف وطنها ، ومحاماته عنها ، وعطفه عليها ، ورقته فى معاملته أبناء شعبه ، ومساهمته بماله فى كل ما يعود عليها بالخير ، وحراسته لحمى دينهم بسيفه الصارم إن ألمت بالدّين نائبة ، وعنايته بأمر ثغورها ، لأنها موطن تسرّب العدو ، حتى لا يستطيع أن ينال منها منالا . وهو الذى يحوط حمى الدين ، ويكفّ الظالم عن الامتمرسال فى ظلمه ،

وينال به المظلوم حقه . ولا يقف فى طريقه ظالم يهضمه ، ويقيم الجهاد ، ويقود شعبه إليه ، ويؤدى فروض الدين ، لأن الدّنيا لا تكون جميلة إلا إذا كان معها عمل صالح يبنّى نعيمه فى الآخرة . وهكذا نستطيع أن ننظر إلى المدح نظرتنا إلى شعر يصوّر بعض نواحى المثل العليا للصفات الإنسانية .

ب – الفخر :

البحترىّ فخور بنفسه وشعره ، وكثير من قصائده فى المدح لا يخلو من الإدلال بهما ، وفى ديوانه فضلا عن ذلك قصائد أنشأها للفخر قصداً ، ولعلّ أظهر هذه القصائد اثنتان ، مطلع الأولى :

إنما الغىّ أن تكون رشيـــدا فانقصا من ملامة ، أو فزيدا[1]

ومطلع الثانية :

أحبب إلىّ بطيف سعدى الآنى وطروقه فى أعجب الأوقات

والقصيدة الأولى أنشأها فى سنّ الشبيبة ، حين لم يكن قد أقام لنفسه مجداً يعتمد عليه فى الفخر ، ولذا بنى فخره على مجد قبيلته : طيئ ، وتكاد القصيدة كلها تقف عند تمجيد طيئ ومدحها ، ودار هذا التمجيد حول أربع صفات ، هى : البأس ، وما يتبع البأس من شجاعة ونجدة ، والكرم ، وكثرة العديد ، ورجاحة الأحلام ، وهى عينها الصفات التى كان العربى الصريح يتمجد بها منذ أقدم العصور . ومن فخره فى هذه القصيدة :

سائل الدّهر مذ عرفناه ، هل يعـ ـرف منا إلاّ الفعال الحميـــدا
لم نزل قطّ مذ ترعرع نكسو ه ندًى ليناً ، وبأساً شديدا
فهو من مجدنا يروح ويغـــدو فى عُلاً لا تبيـــد حتى يبيدا

وكانت قصيدته كلها جارية على هذا النسق القوىّ .

أما القصيدة الثانية فقد أنشأها فى سنّ الأربعين ، بعد أن ظفر بأقصى ما يرجوه شاعر فى ذلك العصر ، وهو أن يتصل بالخليفة ، ويصبح من خاصته ،

---

(١) الغى : الضلال .

مُشفَّعاً مسموع الكلمة ، ولذلك اتجه فيها إلى الفخر بنفسه ، مباهياً بما ظفر به من مكانة ، وما ناله من مجد .

أما فخره بشعره فكثير فى قصائده ، وحسبنا هنا هذا البيت ، إذ يقول :

وأنا الذى أوضحت غير مدافع نهج القوافى ، وهى رسم دارس[1]

حـ — العتاب والاعتذار :

كان للبحترىّ منافسون وحساد ، وذلك أمر طبيعىّ لشاعر نال السعادة شعره ، فكانوا يدسون له ، فتحدث بينه وبين من يتصل بهم قطيعة ، يلجأ إلى الشعر ليزيلها ، وقد يعاتب عندما يشعر بأنّ شيئاً مسّ كرامته .

وقد شهر البحترىّ فى الأدب العربىّ بحلاوة العتاب ، ويعدونه سيداً فى هذه الصناعة ، وأستاذاً للشعراء[2] ، ولم يضعه النقدة فى تلك المكانة إلاّ لما رأوه فى عتابه من رقة ولين ، يجعلان عتابه مقبولاً لدى النفس ، ويستل ما قد يكون فيها من انحراف عليه .

واستمع إلى رقته ، وهو يعاتب المتوكل :

هل يجلبنّ إلىّ عطفك موقفٌ ثبت لديك ، أقول فيه وتسمع[3]
ما زال لى من حسن رأيك موئل آوى إليه من الخطوب ومفزع[4]
فعلام أنكرت الصّديق ، وأقبلت نحوى ركاب الكاشحين تطلع[5]
وأقام يطمع فى تهضُّم جانبى من لم يكن من قبل فيه يطمع[6]
إلا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لى ذنب فعفوك أوسع

والبيت الأخير يرى أن عودة الصلة ضرورية ، سواء أكان هناك ذنب ، أم لم يكن . كما أن الشاعر عندما يقول للخليفة : فعلام أنكرت الصديق ،

---

(١) النهج : الطريق الواضح . والرسم : آثار الديار . والدارس : الممحو .
(٢) العمدة ٢ : ١٠٩
(٣) موقف ثبت : موقف يدل فيه بالحجة والبرهان .
(٤) الموئل : الملجأ ، كالمفزع . (٥) الكاشح : العدو المضمر العداوة .
(٦) تهضمه : ظلمه .

يعرف قدر نفسه أمام الخليفة ، ويراه صديقاً له . والحقّ أن البحترى لم ينس فى عتابه عزّة نفسه ، حتى قال مرّة وهو يعاتب الفتح بن خاقان :

سأحمل نفسى عنك حمل مُجامل وأكرمها ، إذ كانت النفس تكرم[1]
وأبعدُ حتى تعرُض الأرض دوننـــا ويمسى التلاقى ، وهوغيب مُرَجَّم[2]

د ــ الرّثاء :

رثى البحترىّ جماعة من كبار رجال الدولة ، فيهم خليفة ووزير ، كما رثى قومه وغلامه . وهوحين يرثى قد يذرف الدّمع على الميت ، ويذكر فجيعته فيه ، وقد يسجل له ما امتاز به من خلال إنسانية رفيعة ، وقد يجمع فى رثائه بين البكاء والتسجيل .

والبحترىّ مجيد عندما يصوّر عواطفه الحزينة ، ومن أقوى قصائد رثائه ما أنشأه باكياً مقتل المتوكل ، وقد شغله فيها البكاء ، والألم من الغدر ، وخيانة الجند ، وتواطئهم مع ولىّ العهد ، شغله كل ذلك عن تسجيل صفات الخليفة ومآثره[3] .

وكان البحترىّ يبلغ فى بعض قصائد رثائه درجة أرفع مما بلغها فى قصائد مدحه لهؤلاء الذّين رثاهم ، وقد سئل البحترىّ فى ذلك ، فأجاب بأنّ من تمام الوفاء أن تفضل المراثى المدائح[4] .

وأجاد الشاعر كذلك فى التعزية التى يمزجها بالحكمة ، ليخفف وقع المصاب على النفس .

والرثاء عند البحترىّ قليل ، فهل كان لنفسه المرحة المتفائلة أثر فى هذه القلة ، أو أنه كان مقلاًّ من الأصدقاء الذين أخلص لهم وأخلصوا له ، ولم يكن الشاعر يندفع إلى الرثاء إلا إذا حرّكته عاطفة قوية تحمله على القول .

---

(١) جامله : أحسن معاملته وعشرته . (٢) رجم : تكلم بالظن .
(٣) اطلب هذه القصيدة فى قسم المنتخبات فى هذا الكتاب .
(٤) الأغانى ١٨ : ١٧٠ .

هـ — الهجاء :

للبحترىّ كثير من القطع فى الهجاء ، تقرؤها جميعها ، فتخرج منها بنتيجة واحدة ، تلك هى أنّ البحترىّ شاعر غير مطبوع على الهجاء ، وأن الهجاء فن لم يجده البحترىّ ، ولم يتقن أسبابه . وإنك تلمس فى هذا الهجاء ظاهرتين قويتين : إحداهما قصر نفسه فيه ، فجلّ أهاجيه مقطوعات صغيرة ، لا تزيد غالباً على خمسة أبيات أو ستة ، ولا تتجاوز فى أكثر الأحيان البيتين والثلاثة ، وليس قصر النفس وحده كافياً للدلالة على ضعف شاعرنا فى فن الهجاء ، بل يضاف إليه قلة المعانى التى يحويها ، فليس قصر هجائه لأنه شفى نفسه ، وذكر ما أحاط بعنق المهجوّ ، بل لأنه عاجز عن الاستمرار فى الهجاء ، حتى يشفى غيظ نفسه . وثانيتهما : صراحة هجائه ، فهو يدعو من يهجوه حماراً تارة ، وكلباً أخرى ، وتوراً حيناً ، وابن كلب حيناً آخر ، والهجاء القوىّ يسمو عن تلك المعانى إلى حيث الحكم والسخرية . ومما استطاع أن يرتفع فيه أحياناً ، قوله يهجو من يُدعى أبا الحسن المذارىّ :

أبلغ أبا حسن ، وكنت أعدّه ... من بينهم قمناً من الإحسان[1]
إن كنت إنساناً فقل لى صادقاً ... ما الفرق بين القرد والإنسان ؟ !

وقوله يهجو الخثعمى :

ما إن يزال يجرّ من أشعاره ... جيفاً ، فكيف أقول فى الجيف

ولقد حدثنا البحترىّ كثيراً عن بغضه فى مهاجاة الشعراء الهاجين له ، والناقمين عليه ، حذراً من أن يتمادوا فى هجائه ، فيخلد لأسرته عاراً يبقى ولا يزول ، وقد اعترف بذلك صراحة إذ يقول :

وأجبن عن تعريض عرضى لجاهل ... وإن كنت فى الإقدام أطعن فى الصفّ
وإنى لئيم إن تركت لأسرتى ... أوابد تبقى فى القراطيس والصحف[2]

---

(١) القمن : الخليق والجدير .

(٢) الأوابد : جمع آبدة ، وهى : الداهية الخالدة الذكر .

كما كره البحترىّ أن يشهر بالهجاء ، وأن يجعله صناعة له ، ولعله وجد فى عصره أن هؤلاء الذين شهروا بالهجاء، كدعبل الخزاعى وابن الرومىّ، عاشوا بعيدين عن نيل السعادة والحظّ . أما هو فقد ظفر فى شعره بالسعادة والمال، فما له يعرض نفسه لحياة تملؤها الرغبة فى إيجاع الناس بالهجاء :

ولست منبرياً بالجهل أجعـــله صناعة ، ما وجدت الحلم يكفينى

هذا ، وقد كان ما أنشأه فى الهجاء منبعثاً عن أسباب شخصية ، كحرمان من جائزة ، أو تعجرف حاجب وسوء معاملته ، أو تعرّض بعض الناس لشعره. حيناً بالنقد وحيناً بالسرقة، أو عدم شكران صنيعة أداها إلى صاحب ، وقد يثور الحادث خالف الخلق الطيب .

و ــ الحكمة والوصف :

لم يشتهر البحترىّ بالحكمة ، ومع ذلك لم يخل شعره منها، وهو يقتبسها مما أمامه فى الحياة وأحداثها، أو من معانى ما سمعه أو رواه وحفظه، أو من الحادثة التى يقول فيها شعره ، وتجد هذه الحكم منثورة فى شعره .

أما الوصف فقد اعترف مؤرخو البحترىّ له بمقدرته عليه ، وقالوا : إنه أجود أنواع شعره[1] ، ومؤرخوه على حقّ حين عرفوا له مكانته فى هذا الفن . فهو قدير على تصوير ما يرى ، تصويراً ينقل إليك الصورة كاملة ، لتتأثر بها كما تأثر ، ثم لا يقف عند حدود هذا التصوير ، بل يصف لك إحساسه وشعوره إزاء ما يصف ، فهو يشرك عينه وقلبه فى رسم ما يريده . وخذ لذلك مثلا وصفه لإيوان كسرى ، وما فيه من صورة أنطاكية ، فهو لا يكاد يذكر شيئاً تراه العين ، حتى يصف إحساسه إزاء ما يراه ، فعندما وصف صورة أنطاكية ، وفيها أنوشروان يحث جنده على الإقدام ، وقد أظله علم كبير ، ولبس ثوباً أخضر ، واعتلى صهوة جواد أصفر ، وأخذ الروم والفرس يقتتلون بين يديه لا تكاد تسمع لهم صوتاً ــ حدثك عن شعوره ؛ فهو يحس كأن المنايا ترفرف

(١) معجم الأدباء ١٩ : ٢٤٩ .

فوق هذا الجمع الحاشد، وأن ما يراه ليس صورة لجند . ولكنهم أجناد حقيقة يقتتلون حقاً ، ثم يقول :

يغتلى فيهم ارتيابى حتى تتقرّاهمُ يداى بلمس[1]

وإذا وقف لدى الإيوان شعر به كأنما هو حزين، أزعج بفراق حبيب، أو أرهق بتطليق عرس ، وأحس به كأنما يكافح الأيام ، والدهر يلقى عليه بكلكله :

فهو يبدى تجلداً ، وعليــه كلكل من كلاكل الدهر مرسى[2]

ثم يعبر عن منتهى إعجابه بهذا الإيوان ، فيقول :

ليس يُدرى أصنع إنس لجنّ سكنوه ، أم صنع جن لإنس

ولا تكاد تخطو خطوة فى هذه القصيدة الرائعة إلاّ رأيت صورة للعين وإحساسات للنفس . وقل مثل ذلك فى قصيدته التى وصف بها بركة أنشأها المتوكل فى إحدى قصوره ، وتأمل هذه الصورة البارعة للبركة فى الليل ، إذ يقول :

إذا السماء تراءت فى جوانبهــا ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وقد كان للحضارة فى العصر العباسىّ أثرها فى شعر البحترىّ ؛ فوصف القصور التى أغرم بإنشائها بعض الخلفاء، وما ضمته من ألوان الترف والنعيم . كما كان للطبيعة نصيبها فى شعره ، فله قطعة قوّية فى وصف الرّبيع الذى أحسّ به كأنما يقبل مختالاً ضاحكاً ، حتى كاد يتكلم، لما فيه من الحسن والجمال :

ورقّ نسيم الرّيح ، حتى حسبتــه يجىء بأنفاس الأحبــة نعما

وأكثر البحترىّ من وصف الخيل ، ووصف سُرى الليل، ويظهر أنّ لأسفاره أثراً كبيراً فى ذلك ، وقد استعاض عن الناقة بالخيل يركبها ، يقطع عليها المدن والقرى والقفار . وقد كانت رحلة من هذه الرحلات باعثاً له على إنشاء قصيدته التى وصف فيها الذئب ، وقد أجاد فى وصفه ، ووصف المعركة

---

(١) تقرى : تتبع . (٢) الكلكل : الصدر .

التى دارت بينهما ، وانتهت بانتصار البحترىّ ، وهو يصوّر نفسيته ونفسية الذئب فى قوله :

كلانا بها ذئب يحدّث نفسه بصاحبه ، والجدّ يتعسه الجدّ

وللبحترىّ قصيدة وصف فيها مبارزة الفتح بن خاقان للأسد ، وقد وصف الشاعر إعجابه ببطولة المتبارزين ، حين قال :

هزبر مشى يبغى هزبراً ، وأغلبٌ من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا[1]

ز — الغزل :

عرف البحترىّ الحبّ عند ما رأى «علوة» فى مدينة حلب ، ووقف جزءاً كبيراً من شعره يتغزل بغادته ، حتى بعد أن فارقها إلى العراق .

وقد صوّر الشاعر فى غزله كثيراً من عواطف الحب ، ومواقفه :

صوّر جمال المرأة ، فقال :

بأبى شادن تعلق قلبى بجفون فواتر اللحظ مرضى[2]

لست أنساه بادياً من قريب يتثنّى تثنّى الغصن غضا

ووصف مواقف اللقاء والوداع ، إذ قال :

باتت تبرّد من جواى وغلّتى أنفاس ظبى طيب الأنفاس[3]

يدنو إلىّ براحه وبريقه فيعلّنى بالرّيق بعد الكاس[4]

هيف الجوانح منه هاض جوانحى ونعاس مقلته أطار نعاسى[5]

هذا إلى عواطف كثيرة أخرى حدثنا عنها فى شعره ، فوصف لنا كيف يُعشق الحبيب مع هجره ودلاله ، بل كيف يتفانى المرء فى حبيبه ، وكيف أن الحبيب فى نظر من يحبه أجمل مخلوق يراه ، وكيف يتذلل المحب لحبيبه ،

---

(١) الهزبر : الأسد . والأغلب : القاهر المعتز . وللمتنبى قصيدة يصف فيها لقاء بدر بن عمار للأسد . وقد وازن ابن الأثير بين قصيدتى البحترى والمتنبى فى كتابه : المثل السائر ص ٢١٨ .

(٢) الشادن : ولد الظبية .

(٣) الجوى : شدة الوجد من العشق . والغلة : شدة العطش .

(٤) الراح : الخمر . وأعله : سقاه سقياً بعد سق ، أى جرعة بعد أخرى .

(٥) الهيف : ضمور البطن ورقة الخاصرتين . وهاضه : كسره وفتته .

ويستعطفه ، وإن كان هو الجانى المذنب ،وكيف يصبر المحبّ على ما يلاقيه من عذل ولوم ، لأن المحب يلذه ما يلاقيه فى الحبّ من عذاب ، إلى غير ذلك من عواطف وإحساسات يطول وجه استقصائها ، وكثير من هذه المعانى سبقه بها غيره من الشعراء ، كما قلد شعراء العرب الأولين ؛ فبكى الدّيار ، وسأل لها السقيا ، وسألها ، ولم تجبه ، ووقف عندها ، وذكر عهدها وأيامها ، إلى غير ذلك مما أكثر منه شعراء الجاهلية ، ولكن البحترىّ يدخل عليها من حسن نظمه ما يجعل هذه المعانى المكرورة ، عذبة محبوبة .

وأكثر البحترىّ من ذكر طيف الحبيب ، وشهر به شهرة فائقة[1] ، حتى ضرب به المثل بين الأدباء . فأصبحوا يقولون : أرقّ من طيف البحترىّ ، وربما كان السبب فى إكثار الشاعر من ذكر الطيف حبه لعلوة . ثم بعده عنها ، ومن ذلك قوله :

تدرين كم من زورة مشكورة ... من زائر وهب الخطير . وما درى
غاب الوشاة ، فبات يسهل مطلب ... لو يشهدون طريقـــه لتوعرا
كان الكرى حظ العيون ، ولم أخل ... أن القلوب لهنّ حظ فى الكرى

ويقول بعض الباحثين[2] : إنه بنى أكثر أوصافه للخيال على قول قيس بن الخطيم[3] :

إنى سربت ؟ وكنت غير سروب ... وتقرّب الأحلامُ غير قريب[4]
ما تمنعى يقظى فقـــد تؤتينـــه ... فى النوم غير مصرّد محسوب[5]

والحق أن البحترىّ كرّر كثيراً معانى قيس ، وإن لم يقف عندها ، بل ولّد ، وأتى بكثير من المعانى غيرها ، مما جعل البحترىّ مصدراً يقتبس منه الشعراء بعده .

---

(١) العمدة ٢ : ٩٥ . (٢) الموازنة ص ١٦١ .
(٣) شاعر الأوس وأحد صناديدها فى الجاهلية توفى سنة ٢ هـ .
(٤) سرب : توجه للرعى . يريه توجهت لزيارتى .
(٥) صرد العطاء : قلله ، وصرد الرجل : سقاه دون الرى . والناقدون يأخذون على هذا البيت أن الشاعر يريد : ما تمنعينه فى يقظتى فقد تؤتينه فى حال نومى . فى حين أن البيت يقول : ما تمنعينه وأنت متيقظة فقد تؤتينه وأنت نائمة ، وليس ذلك بمراد . راجع الموازنة ص ١٦٢ .

٤ ـ تأثره وتأثيره

اتصل البحترىّ بكبار شعراء عصره : أبى تمام . ودعبل الخزاعى ، وابن الرومىّ ، وعلىّ بن الجهم ، وابن المعتزّ ، وابن الزيات ، وابن طاهر ، وكان أبو تمام أعظم هؤلاء الشعراء تأثيراً فى البحترىّ وشعره ، وكان أوّل ما قاله له : « يا أبا عبادة ، تخير الأوقات ، وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، واعلم أنّ العادة فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السحر ، وذلك أنّ النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ؛ فإذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد ، فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرف مقامه . وتقاض المعانى ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بهذه الألفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام ، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلاّ وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذّريعة إلى حسن نظمه ، فإنّ الشهوة نعم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله تعالى » (١) .

وجرى شعر البحترىّ فى لفظه ومعناه ، وفى غزله ومدحه ، مقتفياً أثر هذا الدرس ، كما تأثره فى درس آخر ، إذ يقول : أنشدنى أبو تمام لنفسه :

وسابح هطل التعداء ، هتـــان على الجراء أمين غير خوّان (٢)
أظمى الفصوص ، ولم تظمأ قوائمـــه فخلّ عينيك فى ظمآن ريان (٣)

---

(١) زهر الآداب ١ : ١٠١ .

(٢) السابح من الخيل : السريع . وهطل التعداء : متتابع الجرى ، كالهتان . والجراء : الجرى .

(٣) أظمى : أسمر . والفصوص : جمع فص ، وهو حلقة العين .

فلو تراه مشيحاً والحصى زيم بين السنابك من مثنى ووُحدان[١]
أيقنت إن لم تَشَبَّثْ ــ أن حافره من صخر تدمُرَ أومن وجه عثمان[٢]

ثمّ قال لى : ما هذا الشعر ؟ قلت : لا أدرى . قال : هذا الاستطراد . قلت : وما معنى ذلك ؟ قال : يرى أنه يريد وصف الفرس ، وهو يريد هجاء عثمان ؛ فطبق البحترىّ ذلك الدّرس ، فقال فى قصيدته التى مدح فيها محمد بن على القمىّ : وصف الفرس ، فقال :

وأغرّ فى الزّمن البهيم ، محجل قد رُحتُ منه على أغرّ محجل[٣]

ومضى يصفه حتى قال :

ما إن يعاف قذى ، ولو أوردته يوماً خلائق حمدويه الأحول[٤]

وكان حمدويه الأحول عدوّاً لمحمد بن علىّ القمى[٥]

وقد أخذ البحترىّ كثيراً من المعانى التى سبقه بها أبو تمام[٦] ، وقد أحصى بعض العلماء هذه المعانى التى أخذها البحترىّ ، وغالى فى ذلك ، حتى عدّ المعانى المشتركة الشائعة بين الناس . مما أخذه البحترىّ إذا كان قد عبر عنها قبله أبو تمام .

فمما أخذه البحترىّ من أبى تمام قول البحترىّ :

وسألت من لا يستجيب ، وكنت فى استخباره كمجيب من لا يسأل

أخذه من قول أبى تمام :

فسواء إجابتى غير داع ودعائى بالقفر غير مجيب

وقال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

---

(١) أشاح فى أمره : جد . وزيم : قطع .
(٢) تدمر : مدينة قريبة من دمشق .
(٣) الأغر من الخيل : ما كان بجبهته غرة ، وهى البياض . والبهيم : الأسود . والمحجل : ما كان فى قوائمه بياض .
(٤) عاف : كره . والقذى : ما يقع فى الشراب من تبنة ونحوها .
(٥) أخبار أبى تمام ص ٧٨ . (٦) راجع الموازنة ص ١٣٧ وما يليها .

فقال البحترىّ :

ولن تستبين الدّهرَ موضعَ نعمــة إذا أنت لم تُدلل عليها بحامد

وقال أبو تمام :

وما نفعُ من قد ماتَ بالأمس صادياً إذا ما السماءُ اليوم طال انهمارها[1]

فقال البحترىّ :

واعلم بأن الغيث ليس بنــافع للنــاس ما لم يأت فى إبانه[2]

وغير ذلك كثير ، تجده فى كتاب الموازنة ، وكتاب أخبار أبى تمام .

ولم يشأ البحترىّ أن يجارى أبا تمام فى الاستكثار من ألوان البديع استكثاراً أفضى فى كثير من الأحيان إلى تعقيد المعنى وغموضه . وهو ما عيب على أبى تمام ، فاكتفى البحترىّ من المحسنات بما يزين ولا يعقد .

ولم يأخذ عنه أيضاً إيراد المعانى الدقيقة التى تحتاج إلى غوص الفكر ، حتى يهتدى إليها ، وهو ما عرف به أبو تمام ، وآثر البحترىّ وضوح المعنى وضوحاً لا يكد ذهن قارئه .

ولم يقف البحترىّ فى أخذه المعانى عند أبى تمام ، بل كان إذا أعجبه المعنى عند سابقيه من الشعراء أعاد صياغته بأسلوبه ، وأدخله فى شعره . وقد تتبع النقاد ما أخذه البحترىّ من معانى غيره[3] ، فمن ذلك قوله يصف الخمر :

يخفى الزجاجةَ لونها ، فكأنهــا فى الكأس قائمــة بغــير إناء

أخذه من قول علىّ بن جبلة[4] :

كأنّ يد النــديم تدير منهــا شــعاعاً لا يحيط عليــه كأس

وقال البحترىّ :

أعطيتنى ، حتى حسبت جزيل ما أعطيتنيــه وديعــة لم توهب

أخذه من قول الفرزدق[5] :

---

(١) الصادى : العطشان .
(٢) إبان الشىء : حينه .
(٣) راجع الموازنة ص ١٣١ وما يليها .
(٤) شاعر مجيد توفى سنة ٢١٣ هـ .
(٥) شاعر نبيل من أهل البصرة عظيم الأثر فى اللغة توفى سنة ١١٠ هـ .

أعطانى المال ، حتى قلت : يودعنى أو قلت : أعطيت مالا قد رآه لنا

وبيت البحترىّ أجود . وقال الحسين بن الضحاك[١] :

وتطمع أن يطيعك قلب سعدى وتزعم أنّ قلبك قد عصاك

أخذه البحترىّ ، فقال :

ولست أعجب من عصيان قلبك لى عمراً . إذا كان قلبى فيك يعصينى

وقال عمرو بن معدى كرب الزبيدى [٢] :

والضاربين بكل أبيض مرهف والطاعنين مجامع الأضغان

فقال البحترىّ :

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى مشغوفة بمواطن الكتمان

قال الآمدى : « إلاّ أنّ قول عمرو : "والطاعنين مجامع الأضغان" فى غاية الجودة والإصابة ؛ لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل أضغانهم ، فإذا وقع الطعن موضع الضّغن فذلك غاية كل مطلوب »[٣] .

إلى غير ذلك مما ذكره صاحب الموازنة ، وهذا الأخذ طبيعىّ لشاعر مثقف ثقافة واسعة فى الأدب ، ومطلع اطلاعاً كبيراً على ميراث الشعراء السابقين والمعاصرين .

رأى البحترى أن منهجه هو منهج العرب الخالص ، فلم يتأثر أستاذه فى جعل الحكمة من بين أغراض شعره ، ولا أن يصبغ بعض شعره صبغة فلسفية ، كما لم يتأثر معاصريْه : عبيد الله بن عبد الله ، وابن الرومى ، فى إطالة قصائدهما . ووجد ذلك هذراً لا يصلح للشعر إن صلح للخطابة .

وقد اقتدى بالبحترىّ كثير ممن جاء بعد فى سهولة الأسلوب ، وتخير اللفظ ، ووضوح المعنى . ومن أظهر هؤلاء الذين تأثروه أبو فراس الحمدانى ، كما أخذ الشعراء بعض معانيه ، ومن هؤلاء أبو الطيب المتنبى [٤] ، فقد عدّ له صاحب

---

(١) شاعر نديم للخلفاء ، أصله من خراسان توفى سنة ٢٥٠ هـ .

(٢) فارس يمنى ، له شعر جيد توفى سنة ٩ هـ .

(٣) الموازنة ص ١٣٤ .

(٤) من أشهر شعراء الأدب العربى توفى سنة ٣٥٤ هـ .

الوساطة[1] كثيراً من ذلك ، كقوله :

وكل امرئ يولى الجميل محبب ... وكل مكان ينبت العزّ طيّب

أخذه من قول البحترىّ :

وأحبّ آفاق البلاد إلى الفتى ... أرض ينال بها كريم المطلب

وقول أبى الطيب :

وما حاجة الأظعان حولك فى الدّجى ... إلى قمر ؟ ! ما واجد لك عادمه[2]

أخذه من قول البحترىّ :

أضرّت بضوء البدر ، والبدر طالع ... وقامت مقام البدر لما تغيبا

٥ ــ منزلته

يتبوأ البحترىّ مكانة رفيعة بين شعراء العربية . لأنّ مذهبه الشعرىّ ، والنهج الذى اتبعه فى نظم قريضه مذهب سديد ؛ فالشعر هو لسان العاطفة . والمعبّر عن الوجدان ، ويستخدم الخيال فى تصوير ما يجيش بالنفس من إحساسات ، ولذلك قالوا : إنه من المطبوعين على مذهب الأوائل ، ولم يفارق عمود الشعراء المعروف[3] .

وكان البحترىّ أستاذاً للشعراء فى تجنب التعقيد ، ومستكره الألفاظ ، ووحشى الكلام ، وغريب الاستعارات ، كما امتاز شعره بالاستواء ، وأنه قلما ينحطّ فى بعضه انحطاطاً قبيحاً .

وإذا كان أكبر شعر البحترىّ فى المدح فتلك سمة عصره ، والعصور قبله وبعده ، ولم يكن الأدب العربى يرى فى ذلك عيباً . على أننا قد عرضنا فيما مضى رأياً فى المدح .

---

(١) ص ١٨١ وما يليها .

(٢) الأظعان : جمع ظعينة ، وهى الهودج ، والمرأة ما دامت فى الهودج .

(٣) الموازنة ص ٢ .

وقد دلّ البحترىّ على أنه قدير فى معالجته لغير المدح من أغراض الشعر ، ولو أنّ الظروف كانت قد أتاحت له أن يهب شعره للحديث عن عواطفه المختلفة فحسب ، لكان له فى الأدب العربىّ إنتاج ضخم خالد . وحسبك ما أنتجه فى الوصف والغزل دليلاً على ذلك .

ونال البحترىّ مكانة سامية بين شعراء عصره ، قالوا إنه « أسقط فى أيامه أكثر من خمسمائة شاعر ، وذهب بخيرهم ، وانفرد بأخذ جوائز الخلفاء والملوك دونهم »[١] . وقد يكون فى ذلك بعض المغالاة ، ولكنها تصوّر حقيقة منزلته فى أيامه . كما ارتفع صوت المغنين[٢] يطربون الناس بشعره منذ حياته .

وللبحترىّ منزلته كذلك فى تصوير كثير من الأحداث السياسية التى جرت فى عصره ، وما كان لها من صدى فى نفس الحزب الغالب فى تلك الأيام . وكما صوّر الأحداث صوّر بعض مظاهر الحضارة العباسية ، وصوّر بعض الاتجاهات الدينية والأدبية فى العصر الذى عاش فيه .

وإذا كان بعض النقاد[٣] قد أخذ عليه أخطاء فى المعنى وفى اللفظ ، فذلك ما لا يخلو منه شعر شاعر ، وهى فى جملتها قليلة ، لا تحط من شأن إنتاجه الضخم من الشعر .

---

(١) المرجع السابق ص ٥ .

(٢) الأغانى ١٨ : ١٦٧ .

(٣) الموازنة ص ١٦٠ وما يليها .